

في البدء كان الحوار

عبد العزيز المقالم

طبيعة الحياة التي تتعدد معها الآراء وتتنوع الاختيارات؛ فإن الحوار -بمعناه الإيجابي الشامل- هو الوسيلة المثلى للفهم وللتعايش بين المختلفين. ولن يستقر حال الأمم ولا حال الشعوب، الكبيرة والصغيرة، إلا بالإيمان بقبول الآخر والحوار معه، للحفاظ على المجتمعات من التفكك، ولتجاوز الانقسامات وما يترتب عليها من تدمير للطاقات وإشعال الفتن واختلاق أشكال من الصراعات التي لا مبرر لها؛ لا لأنها تخالف مبدأ المواطنة القائمة على المساواة والتكافؤ في الحقوق والواجبات فحسب، وإنما لأنها تهدد الاستقرار وتلغي كل محاولة للتقدم.

وليس من المبالغة في شيء القول بأنه في البدء كان الحوار، فقد وضع الله سبحانه في كتابه العزيز أساس الاختلاف الإيجابي، كما وضع أساس الحوار أيضاً. يقول تعالى عن

يبدو لي أحياناً أن ثقافتنا العربية القديمة التي تُنعت دائماً بالماضوية، نقداً لها وتقليلاً من أهميتها، ما تزال في بعض جوانبها المضيئة أنجح وأكثر قدرة في تحديد بعض ما يلزمنا في عصرنا الراهن من وسائل وأساليب التعامل مع أنفسنا ومع الآخر. ولهذا فنحن نتذكر باحترام مقولة الإمام الشافعي، وهو أحد الأئمة الأربعة المشهود لهم بفهم الشريعة الإسلامية: "رأيي خطأ يحتمل الصواب، ورأي غيري صواب يحتمل الخطأ". وفي هذا القول شديد الوضوح ما يؤكد نسبية الحقيقة، وانتفاء الادعاء بامتلاك الموضوعية المطلقة من قبل شخص أو أشخاص، مهما علت أقدارهم واستوت أفكارهم. ومن هنا يبدو حق الناس في الاختلاف معادلاً لحقهم في الاختيار.

وبما أن تعدد المعاني والمواقف جزء من طبيعة الكون القائم على الاختلاف، ومن

يجد البعض، من الحاكمين والمنظمات والأحزاب، غضاضة في تقبل الحوار، الذي هو مفتاح الاعتراف بالآخر والوسيلة الممكنة لترسيخ الحياة المستقرة واكتشاف المزيد من القواسم المشتركة بين المختلفين، والاستباق إلى إغلاق ملفات الأزمات قبل وقوعها أو حتى بعد وقوعها؟ لقد تزايدت الاختلافات، وباعدت الأفكار المختلفة بين الناس، وأضربت المعارك الكلامية، التي كثيرا ما تكون مقدمة لمعارك ضارية بالمدافع والصواريخ. ولا يبدو على الأفق القريب والبعيد من حل للمنازعات المتلاحقة، سوى الحوار، بمعناه الصادق والإيجابي، المنطلق من قلوب وعقول مفتوحة، والصاعد من الإيمان بأن في كل وطن متسعا لجميع أبنائه، مهما اختلفت رؤاهم وانتماءاتهم.

الأساس الأول: ﴿وَمَنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاخْتَلَفَ أَلْسِنَتَكُمْ وَآلْوَانَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾، وعن الأساس الآخر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * قَالَ فِيمَا أُغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَاتَبْنَهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمَنْ خَلْفَهُمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّنْ نَّبْعَثَ مِنْهُمْ لَأْمَلَانَ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ .

ألا تكفي هذه الأسس الرفيعة والتوجيهات الأسمى لإقناع البشر بأهمية الحوار؟ وهل